من النثر العربي القديم

١- المـواقف

محمد عبد الجبّار النفّري*

موقف الأدب

أوقفني في الأدب، وقال لي: طلبك مني وأنت لا تراني عبادة، وطلبك مني وأنت تراني استهزاء.

وقال لي: إذا بلوتك فانظر بما علقتك، فإن كان بالسِّوى فاشكُ إليّ، وإن كان بي أنا فقد قرَّتْ بك الدار.

وقال لي: إذا رأيتني في بلائي فاعرف حدك الذي أنت به، ولا تغب فيه عن رؤيتي؛ فإن كان نعيماً فانعم، وإن رأيته بؤساً فلا تنعم.

وقال لي: رأس المعرفة حفظُ حالكَ التي لا تقسمك.

وقال لي: إن راعيتَ شيئاً من أجله أو من أجلك، فما هو المعرفة، ولا أنت من المعرفة.

وقال لي: كل ما جمعك على المعرفة فهو من المعرفة.

وقال لي: إن انتسبتَ فأنت لما انتسبتَ إليه، لا لي، وإن كنت لسبب فأنت للسبب، لا لي.

وقال لي: خَلِّ المعرفة وراء ظهرك، تخرجْ من النسب. ودُمّ لي في الوقفة، تخرجْ من السبب.

وقال لي: إن طلبتَ من سواي فادفن معرفتك في قبر أنكر المنكرين.

وقال لي: إن جمعتَ بين السِّوى والمعرفة، محوتُ المعرفة وأثبتُّ السِّوى وطالبتُك بمفارقته ولن تفارق ما أثبتُّه أبداً.

---

* أبو عبدالله محمد عبد الجبار النفّري: (ت. ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، متصوف عراقي، ينسب إلى بلدة النِفَّر في الكوفة، اشتهر بكتابيه: "المواقف" و"المخاطبات".

وقال لي: المعرفة لسان الفردانية، إذا نطق محا ما سواه، وإذا صمت محا ما تعرف.

وقال لي: أنت ابن الحال التي تأكل فيها طعامك وتشرب فيها شرابك.

وقال لي: آليت لا أقبلك وأنت ذو سبب أو نسب.

موقف العزاء

أوقفني في العزاء، وقال لي: وقت نعمة الدوام في الجزاء بأيام الفناء في العمل.

وقال لي: لو كشفتُ لك عن وصف النعيم أذهبتُك بالكشف عن الوصف وبالوصف عن النعيم، وإنما ألبستك لطفي فتحمل به لطفي، وأتوجك بعَطفي فتجري به من عِطفي.

وقال لي: اذكرني مرةً أمحُ بها ذكرك كل مرة.

وقال لي: يا من صبر على أبسط الكون لعطائي لا يسع، أبسط أمانيك لعطائي لا تبلغ، اشتهر

وقال لي: إذا غبت فاجمع عليك المصائب، وسيأتي كل كون لتعزيتك في غيبتي، فإن سمعتُ أجبتُ وإن أجبتُ لم ترني.

وقال لي: لا في غيبتي عزاء، ولا في رؤيتي قضاء.

وقال لي: أنا اللطيف في جبارية العز، وأنا العطوف في كبرياء القهر.

وقال لي: إن قلتُ لك أنا، فانتظر أخباري؛ فلستَ من أهلي.

وقال لي: أنا الحليم وإن عظمت الذنوب، وأنا القريب وإن خفيت الهموم.

وقال لي: من رآني صمد لي، ومن صمد لي لم يصلح على المواقيت.

وقال لي: قد تعلم علم المعرفة وحقيقتك العلم، فلست من المعرفة. وقد تعلم علم الوقفة وحقيقتك المعرفة، فلست من الوقفة.

وقال لي: حقيقتك ما لا تفارقه، لا كل علم أنت مفارقه.

موقف معرفة المعارف

أوقفني في المعارف، وقال لي: هي الجهل الحقيقي من كل شيء بي.

وقال: صفة ذلك في رؤية قلبك وعقلك، هو أن تشهد بسرِّكَ كل ملك وملكوت، وكل سماء وأرض وبر وبحر وليل ونهار ونبي وملك وعلم ومعرفة وكلمات وأسماء، وكل ما في ذلك، وكل ما بين ذلك، يقول: "ليس كمثله شيء"، وترى قوله "ليس كمثله شيء" هو أقصى علمه ومنتهى معرفته.

وقال لي: إذا عرفتَ معرفة المعارف جعلتُ العلم دابة من دوابك، وجعلتُ الكون كله طريقاً من طرقاتك.

وقال لي: إذا جعلتُ الكون طريقاً من طرقاتك لم أزد ودَّك منه، هل رأيت زاداً من طريق!؟

وقال لي: الزاد من المقرِّ، فإذا عرفتَ معرفة المعارف فمقرُّك عندي وزادك من مقرك، لو استضفت إليك الكون لوسعهم.

وقال لي: لا يعبِّر عني إلا لسانان: لسان معرفة، آيته إثبات ما جاء به بلا حُجَّة. ولسان علم، آيته إثبات ما جاء به بحُجَّة.

وقال لي: لمعرفة المعارف عينان تجريان: عين العلم، وعين الحكم. فعين العلم تنبع من الجهل الحقيقي. وعين الحكم تنبع من عين ذلك العلم. فمن اغترف العلم من عين العلم، اغترف العلم والحكم. ومن اغترف العلم من جريان العلم، لا

من عين العلم، نقلته ألسنة العلوم وميَّلته تراجم العبارات، فلم يظفر بعلم مستقر. ومن لم يظفر بعلم مستقر لم يظفر بحكم.

وقال لي: قِفْ في معرفة المعارف، وأقمْ في معرفة المعارف، تشهدْ ما أعلمته. فإذا شهدته أبصرته، وإذا أبصرته فرَّقت بين الحُجَّة الواجبة وبين المعترضات الخاطرة. فإذا فرَّقتَ ثَبتَّ، وما لم تفرق لم تَثْبُتْ.

وقال لي: من لم يغترف العلم من عين العلم، لم يعلم الحقيقة، ولم يكن لما عَلِمَه حكم، فحلَّت علومه في قولهِ لا في قلبه. كذلك تحل فيمن عَلِم.

وقال لي: إذا ثَبتَّ فانطقْ، فهو فرضُك.

وقال لي: كل معنوية مُمَعْنَاة، إنما مُعنيتْ لتُصْرَف. وكل ماهية مُمْهاة، إنما أُمْهيَتْ لتُخترَع.

وقال لي: كل محلول فيه وعاء، وإنما حلَّ فيه لخلوِّ جوفه. وكل خالٍ مُوعى، وإنما خلا لعجزه، وإنما أوعى لفقره.

وقال لي: كل مشار إليه ذو جهة، وكل ذي جهة مُكْتَنَف، وكل مُكْتَنَف مَفْطون، وكل مفطون مُتخيَّل، وكل متخيل متجزِّئ، وكل متجزئ وكل هواء ماسٌّ، وكل ماس محسوس، وكل فضاء مُصَادَف.

وقال لي: إعرفْ سطوتي تحذرْ مني ومن سطوتي، وأنا الذي يجير منه ما تعرف، وأنا الذي لا يحكم عليه ما بدا من علمه، كيف يجير مني تَعَرُّفي وأنا المتعرَّف به، إن أشأ تنكرتُ به كما تعرَّفتُ به!؟ وكيف يَحْكُم عليّ علمي وأنا الحاكم به، إن أشأ أجهلت به كما أعلمت به!؟

وقال لي: إسمع إلى معرفة المعارف كيف تقول لك: سبحان من لا تعرفه المعارف، وتبارك من لا تعلمه العلوم! إنما المعارف نور من أنواره، وإنما العلوم كلمات من كلماته.

وقال لي: إسمع إلى لسان من ألسنة سطوتي، إذا تعرفت إلى عبد فدفعني عدتُ كأني ذو حاجة إليه، يفعل ذلك مني كرمُ سبقي فيما أنعمت، ويفعل ذلك بخلُ نفسه بنفسه التي أملكها عليه ولا يملكها عليّ. فإن دفعني عدت إليه. ولا أزال أعود، ولا يزال يدفعني عنه. فيدفعني وهو يراني أكرمَ الأكرمين، وأعود إليه وأنا أراه أبخلَ الأبخلين. أصنع له عذراً إذا حضر، وأبتدئه بالعفو قبل العذر، حتى أقول في سرِّه: أنا ابتليتك. كل ذلك ليذهب عن رؤية ما يوحشه مني. فإن أقام فيما تعرفت به إليه، كنتُ صاحبه وكان صاحبي. وإن دفعني لم أفارقه لدفعه المتزج بجهله، لكن أقول له: أتدفعني وأنا ربك؟ أما تريدني ولا تريد معرفتي؟ فإن قال: لا أدفعك، قبلت منه. ولا يزال كلما يدفعني أقرره على دفعه. فكلما قال: لا أدفعك، قبلت منه. حتى إذا دفعني فقررته على دفعه، فقال: نعم، أنا أدفعك؛ وكذب وأصر، نزعت معارفي من صدره، فعرجتُ إلي، وارتجعت ما كان من معرفتي في قلبه. حتى إذا جاء يومه، جعلت المعارف التي كانت بيني وبينه، ناراً أوقدها عليه بيدي، فذلك الذي لا تستطيع ناره النار، لأني أنتقم منه بنفسي لنفسي، وذلك الذي لا تستطيع خزنتها أن تسمع بصفة من صفات عذابه ولا بنعت من نعوت نكالي به، أجعل جسمه كسعة الأرض القفرة، وأجعل له ألف جلد، بين كل جلدين مثل سعة الأرض. ثم آمر كلَّ عذاب كان في الدنيا فيأتيه كله لعَيْنِه، فيجتمع في كلِّ جارحة منه كلُّ عذابٍ كان في الدنيا بأسر العين

ذلك العذاب وعلى اختلافه في حال واحدة لسعة ما بين أقطاره وعظم ما وسعت من خلقه لنكاله. ثم آمر كلَّ عذاب كان يتوهمه أهل الدنيا أن يقع، فيأتيه كلهُّ لعَيْنِه التي كانت تتوهم، فيحل به العذاب المعلوم في الجلدة الأولة، ويحل به العذاب الموهوم في الجلدة الثانية. ثم آمر بعد ذلك طبقات النار السبع، فيحل عذاب كل طبقة في جلدة من جلده. فإذا لم يبق عذاب دنيا ولا آخرة إلا حل بين كل جلدين من جلوده، أبديت له عذابه الذي أتولاه بنفسي فيمن تعرفت إليه بنفسي فدفعني، حتى إذا رآه فَرِقَ لرؤيته العذاب المعلوم، وفَرِقَ منه العذاب الموهوم، وفَرِق له عذاب الطبقات السبع. فلا يزال عذاب الدنيا والآخرة يَفْرَق أن أعذبه بالعذاب الذي أبديته، فأعهد إلى العذاب أني لا أعذبه، فيسكن إلى عهدي ويمضي في تعذيبه على أمري، ويسألني هو أن أضعف عليه عذاب الدنيا والآخرة وأصرف عنه ما أبديته. فأقول له: أنا الذي قلت لك: أتدفعني؟ فقلت: نعم، أدفعك. فذاك آخر عهده بي. ثم آخذه بالعذاب مدى علمي، في مدى علمي، فلا يثبت علم العالمين ولا معرفة العارفين لسماع صفته بالكلام. ولا أكون كذلك لمن تمسَّك بي في تعرُّفي، وأقام عندي إلى أن أجيء بيومه إليه، فذلك الذي أؤتيه نعيم الدنيا كلها: معلوماً وموهوماً، ونعيم الآخرة كلها بجميع ما يتنعم به أهل الجنان، ونعيمي الذي أتولاه بنفسي من تنعيم من أشاء ممن عرفني فتمسك بي.

وقال لي: سلْني وقلْ: يا رب، كيف أتمسك بك، حتى إذا جاء يومي لم تعذبني بعذابك، ولم تصرف عني إقبالك بوجهك؟ فأقول لك: تَمَسَّكْ بالسُّنَّة في علمك وعملك، وتَمسَّكْ بتعرُّفي إليك في وجد قلبك، واعلم أني إذا تعرّفتُ إليك لم أقبلْ منك من السُّنَّة إلا ما جاء به تعرُّفي؛ لأنك من أهل مخاطبتي، تسمع مني، وتعلم أنك تسمع، وترى الأشياء كلها مني.

وقال لي: عهدٌ عَهِدْتُهُ إليك، أن تعرُّفي لا يطالِب بفراق سُنَّتي، لكن يطالِب بسُنَّة دون سُنّة، وبعزيمة دون عزيمة. فإن كنتَ ممن قد رآني فاتبعني واعمل ما أشاء، بالآلة التي أشاء لا بالآلة التي تشاء. أليس كذلك تقول لعبدك!؟ فالآلة هي سُنّتي، فاعمل منها بما أشاء منك، لا بما تشاء لي وتشاء مني. فإن عجزتَ في آلة دون آلة، فعُذري لا يكتبك غادراً. وإن ضعفتَ في عزيمة دون عزيمة، فرخصتي لا تكتبك عاثراً؛ فإنما أنظر إلى أقصى علمك إن كان عندي، فأنا عندك.

موقف الأعمال

أوقفني في الأعمال، وقال لي: إنما أظهرتك لتثبت بصفتي لصفتك. فأنت لا تثبت لصفتي، إنما تَثْبُت بصفتي. وأنت تَثْبُت لصفاتك، ولا تثبت بصفاتك.

وقال لي: إنما صفتُك الحدُّ، وصفة الحدِّ الجهة، وصفة الجهة المكان، وصفة المكان التجزيء، وصفة التجزيء التغاير، وصفة التغاير الفناء.

وقال لي: إن أردت أن تَثْبُتَ فقفْ بين يدي في مقامك، ولا تسألني عن المخرج.

وقال لي: أتدري أين محجة الصادقين؟ هي من وراء الدنيا، ومن وراء ما في الدنيا، ومن وراء ما في الآخرة.

وقال لي: إذا سلكتَ إليّ من وراء الدنيا أتتْك

رسـلي متلقين، تعرف في عيونهم الشـوق، وترى في وجوههم الإقبال والبُشْـرى. أرأيت غائباً غاب عـن أهله فآذنهم بقدومه؟ أليس إذا قطع مسـافة القاصدين، وسـلك فـي مَحَجَّة الداخلـين، تلقوه أمـام منزلـه ضاحكين، وأسـرعوا إليـه فرحين مستبشرين؟

وقال لي: من لم يسـلك مَحَجَّة الصادقين، فهو كيفمـا كان في الدنيا مقيـم، ومما فيها آخذ، أتته رسـلي مخرِجين، وتلقته مرحِّلين مزعِجين. فسابقٌ سَبَقَ له العفو، فرأى في عيونهم آثار هيبة الإخراج، ونظر في وجوههم آثار هيبة الإزعاج. وآخر سـبق لـه الحجاب، فما هو من خير، ولا الخير خاتمة ما عنده.

وقـال لي: احذر، وبعدد مـا خلقتُ فاحذر. إن أنت سـكنت على رؤيتي طَرْفَـةَ عين، فقد جوَّزتك كلما أظهرته، وآتيتك سلطاناً عليه.

وقال لي: كما تدخل إليَّ في الصلاة، تدخل إليَّ في قبرك.

وقال لـي: آليتُ لا بد أن تمشـي مع كل واحد أعمالـهُ. فإن فارقها في حياتـه، دخل إليّ وحده، فلم يضق به قبره. وإن لم يفارقها في حياته، دخلتْ معـه إلى قبره، فضاق به، لأن أعماله لا تدخل معه علوماً، إنما تتمثل له شخصاً فتدخل معه.

وقال لـي: أنظر إلى صفة ما كان من أعمالك: كيف تمشـي معك، وكيف تنظر إليها تمشي منك، بحيـث تكون بينك وبين ما سـواها مـن الأعمال والأتباع، فتدافع عنك، والملائكة يلُونها، وما سواها مـن الأعمال وراء ذلك كلـه، فأبدي ما كان لي من عملك في خلال تلك الفُـرج تدافع عنك كما كنت تدافع عنها، وتنظر أنت إليها كما تنظر إلى المتكفل بنصرك وإلى الباذل نفسـه من دونك، وتنظر إليك كما كنـت تنظر إليهـا، وتقول: إليَّ فأنـا المتكفل بنصرك، أنا الباذل نفسه دونك. حتى إذا جئتما إلى البيـت المنتظر فيه ما يُنتظر، وماذا ينتظر، ودعتك وداع العائد إليك، وودعتْك الملائكة وداع المثبت لك، ودخلت إليّ، وجُدُك لا عملك معك وإن كان حسناً؛ لأنـك لا تراه أهلاً لنظـري، ولا الملائكة معك وإن كانوا أولياءك؛ لأنك لا تتخذ ولياً غيري، فتتصرف الملائكة إلـى مقاماتهم بين يدي، وينصرف ما كان لي عملك إليَّ.

وقال لي: تعلَّمْ ولا تسـمع من العلم، واعمل ولا تنظر إلى العمل.

وقال لي: عمل الليل عماد لعمل النهار.

وقال لي: تخفيف عمل النهار أَدْوَمُ فيه، وتطويل عمل الليل أَدْوَمُ فيه.

وقال لي: إن أردت أن تثبُت بين يديّ في عملك، فقـف بين يديّ لا طالباً مني ولا هارباً إلي؛ إنك إن طلبـت مني فمنعتك رجعتَ إلـى الطلب لا إليَّ، أو رجعـت إلى اليأس لا إلى الطلـب. وإنك إن طلبت مني فأعطيتك رجعت عني إلى مطلبك، وإن هربت إليّ فأجرتك رجعت عني إلى الأمن من مهربك من خوفـك. وأنا أريد أن أرفع الحجـاب بيني وبينك، فقف بين يديّ لأنـي ربك، ولا تقف بين يديّ لأنك عبدي.

وقـال لي: إن وقفتَ بين يديّ لأنك عبدي، مِلْتَ ميـل العبيد. وإن وقفتَ بين يديّ لأني ربك، جاءك

حكمي القيوم فحال بين نفسك وبينك.

وقال لـــي: إن انحصر علمك لـــم تعلم، وإن لم ينحصر عملك لم تعمل.

وقال لـــي: العمل عملان: راتب وزائر. فالراتب لا يتســـع العلـــم ولا يثبت العمل إلا بـــه، والزائر لا يتسع العلم به.

وقال لي: إن عملت الراتب ولم تعمل الزائر ثبت علمك ولم يتســـع، وإن عملـــت الزائر والراتب ثبت علمك واتسع.

وقـــال لي: إعـــرف صفتك التـــي لا تغيب فيها عنـــك، ثم اعـــرف صفتك التي لا تعجـــز فيها عن عملك، فتعلم ولا تجهل وتعمل ولا تفتر.

وقال لي: إن لم تعـــرف صفتك علمتَ وجهلتَ، وعملتَ وفترتَ؛ فبحســـب ما بقي عندك من العلم تعمل، وبحسب ما عارضك من الجهل تترك.

وقال لـــي: زِنِ العلم بميزان النيـــة، وزِنِ العمل بميزان الإخلاص.

موقف التذكرة

أوقفني في التذكرة، وقال لي: لا تثبت إلا بطاعة الأمر، ولا تستقيم إلا بطاعة النهي.

وقال لي: إن لم تأتمر مِلْتَ، وإن لم تنتهِ زغتَ!

وقال لـــي: لا تخرج من بيتـــك إلا إليّ تكن في ذمتي وأكن دليلك، ولا تدخل إلا إليّ إذا دخلت تكن في ذمتي وأكن معينك.

وقال لي: أنا الله لا يُدخَل إليّ بالأجســـام، ولا تُدرك معرفتي بالأوهام.

وقال لي: إن وليتني من علمك ما جهلتَ، فأنت وليِّي فيه.

وقال لي: كلمـــا رأيته بعينك وقلبك من ملكوتي الظاهر والخفي، فأشهدتك تواضعه لي وخضوعه لبهاء عظمتي، لمعرفة أثبتها لك فتعرفها بالإشـــهاد لا بالعبـــارة؛ فقد جوزتك عنها وعمـــا لا ينفد من علوم غيرها وألســـنة نواطقهـــا، وفتحت لك فيها أبوابي التي لا يلجهـــا إليّ من قويتْ معرفته بحمل معرفتها، فحملتها ولم تحملك، لما أشـــهدتك منها ولما لم أشـــهدها منك، فوصلت إلى حد الحضرة، وقيل بين يدي: فلان بـــن فلان؛ فانظر عندها من أنـــت، ومن أين دخلت، ومـــاذا عرفت حتى دخلت، ولماذا وسعت حتى حملت.

وقال لي: إذا أشـــهدتك كل كون إشهاداً واحداً في رؤية واحدة، فلي في هذا المقام إســـم إن علمتَهُ فادْعُني به، وإن لم تعلمه فادْعُني بوجد هذه الرؤية في شدائدك!

وقال لي: صفة هذه الرؤية أن ترى العلو والسفل، والطول والعرض، وما في كل ذلك، وما كل ذلك به فيما ظهر فقام، وفيما ســـخر فدام، فتشهد وجوه ذلك راجعة بأبصارها إلى أنفســـها، إذ لا يستطيع أن يقبـــل كل جزئية منها إلا إلى أجزائها، وتشـــهد منها مواقع النظر، المثبت فيها الوجود تســـبيحها، منعرجة إليّ بتماجيد ثنائها، شاخصة إليَّ بالتعظيم المذهل لها عن كل شيء إلا عن دؤوبها في أذكارها. فإذا شهدتها راجعة الوجوه، فقل: يا قهار كل شيء بظهور سلطانه، ويا مستأثر كل شيء بجبروت عزه، وأنت العظيم الذي لا يســـتطاع ولا تستطاع صفته.

وإذا شهدتها شاخصة للتعظيم، فقل: يا رحمن يا رحيم، أسألك برحمتك التي أثبتَّ بها في معرفتك، وقوَّيتَ بها على ذكرك، وأسميتَ بها الأذهان إلى الحنين إليك، وشرَّفتَ بها مقام من تشاء من الخلق بين يديك.

وقال لي: إذا سـلَّمتَ إليّ ما لا تعلم، فأنت من أهل القوة عليه إذا أبديتُ لك علمه. وإذا سـلمت إليّ ما علمت، كتبتك فيمن أستحي منه.

وقال لي: المعرفة ما وجدته، والتحقق بالمعرفة ما شهدته.

وقال لي: العالم يستدل عليّ؛ فكل دليل يدله إنما له يدله على نفسه لا عليَّ. والعارف يستدل بي.

وقـال لـي: العلم حُجَّتي على كل عقل، فهي فيه ثابتة لا يذهل العقل عنها وإن تذاهل، ولا يرحل عن علمه وإن أعرض.

وقال لي: لكل شيء شجر، وشجر الحروف الأسماء. فاذهب عن الأسماء تذهب عن المعاني.

وقال لي: إذا ذهبت عن المعاني، صلحت لمعرفتي.

موقف الموت

أوقفني في الموت، فرأيت الأعمال سـيئات، ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء، ورأيت الغنى قد صار ناراً ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصماً يحتج، ورأيت كل شيء لا يقدر على شيء، ورأيت الملك غروراً، ورأيت الملكوت خداعاً، وناديت: يا علم! فلم يجبني، وناديت: يا معرفة! فلم تجبني، ورأيت كل شـيء قد أسـلمني، ورأيت كل خليقـة قد هرب مني، وبقيت وحدي، وجاءني العمل، فرأيت فيه الوهم الخفي والخفي الغابر، فما نفعني إلا رحمة ربي. وقال لي: أين علمك؟ فرأيت النار.

وقال لي: أين عملك؟ فرأيت النار.

وقال لي: أين معرفتك؟ فرأيت النار.

وكشف لي عن معارفه الفردانية، فخمدت النار.

وقال لي: أنا وليك. فَثَبَتُّ.

وقال لي: أنا معرفتك. فنطقتُ.

وقال لي: أنا طالبك. فخرجتُ.